الزراعة الرومانية في الشمال الشرقي للصحراء الجزائرية

– آثار الليمس النوميدي نموذجا –

الأستاذ: جمال مسرحي، جامعة باتنة 01، الجزائر

الملخص:

يتناول هذا البحث جانبا من آثار الليمس النوميدي في الجنوب الأوراسي المتاخم للصحراء. ويبرز الجوانب الاقتصادية لليمس من خلال دراسة المخلفات الأثرية في شمال الصحراء خاصة المناطق المحاذية للوديان على غرار مناطق: بادس، زريبة الوادي، زريبة حامد، القنطرة، و لوطاية، تلك المناطق التي تعتبر مرتكزات أساسية لليمس النوميدي في الشمال الشرقي للصحراء الجزائرية الذي لعب الجنود السوريون الذين استقدموا في إطار الفرق المساعدة دورا أساسيا في إرساء دعائمه القائمة على رومنة الأرض والإنسان خصوصا أثناء فترة حكم الأباطرة السيفيريين (193 – 235 للميلاد).

Abstract:

In this research, some of the remnants of the Numidian limes in the southern Aurassian region of the Sahara are treated. It shows the economic aspects of limes through the archaeological remains in the northern Saharan, especially the riverside areas: Bades, zeribet el ouad, zeribet hamed, el kantara and loutaya. These regions are considered as anchorage points for the limes in the northeastern Algerian Sahara whose Syrian soldiers who came as part of auxiliaries in the Roman army played a very important role in building its pillars for the romanization of man and of the earth especially in the period of the emperor of the dynasty of severess (193-235).

مقدّمة:

لقد عمد الرومان خلال القرنين الثاني والثالث للميلاد وبعد فشل المقاومات المحلية إلى انتهاج أساليب مختلفة لتكريس احتلالهم لإفريقيا، فزيادة على الأساليب العسكرية اهتموا بالاستيطان وذلك لجعل الاحتلال أمرا واقعا، ولتحقيق الاستيطان الأهداف المتوخاة منه قاموا بتوزيع الأراضي المغتصبة من أهلها على المرتزقة في الجيش الروماني أو الجنود المسرحين من الجيش بعد انتهاء أداء خدمتهم العسكرية، فعملوا على استغلال تلك الأراضي بإقامة زراعات متعددة في مناطق التواجد الروماني ، ذلك ما يؤدي بنا الى التساؤل حول الظروف التي تمت فيها السيطرة على تلك الأراضي ؟ وكيف تكاملت الأدوار التي لعبها الليمس النوميدي في تلك المناطق ؟ وما أهمية ممارسة النشاط الزراعي بتلك المناطق في تكريس الرومنة ؟ وما الشواهد الأثرية التي تظهر ذلك ؟

للإجابة على تلك التساؤلات حاولنا استقراء آثار الليمس في شمال النوميدي واعتمدنا على منهج تحليلي للشواهد الأثرية من أجل قراءة اقتصادية للمخلفات الأثرية وإبراز النشاط الزراعي الروماني وأهميته في تكريس الاحتلال واستغلال الأرض والإنسان.

1.الري والزراعة في مناطق الليمس :

يعتبر الليمس [1] مؤسسة بالغة التعقيد نظرا لمكوناتها المختلفة وأنشطتها المتنوعة، والتي تدل على طابع الهيمنة الذي اتسمت به السياسة الرومانية من خلال إنشائها لخطوط الليمس لأغراض متعددة، إذ لم تقتصر على الجانب الأمني والعسكري الدفاعي فحسب، بل تعدت ذلك لتشمل الجوانب الاقتصادية لا سيما المجال الزراعي باستصلاح الأراضي النوميدية واستغلالها، خاصة تلك الواقعة في أقصى الجنوب بالتخوم الأوراسية وأطراف الصحراء، إذ لا يمكن استبعاد ارتباط توغل الرومان نحو المناطق الجنوبية النوميدية بتوفر شبكة المياه، العامل الأساس لاستغلال الثروة الزراعية التي تدرها الأراضي الخصبة في تلك المناطق. ذلك ما

أدى إلى تنامي حركة الاستيطان في الجنوب، مما جعل مؤسسة الليمس إحدى أهم آليات تكريس الهيمنة الرومانية على الأرض والإنسان.

2.أعمال الري :

لم يكتف الرومان بالاستيطان واستغلال الأراضي التلية النوميدية والتي تتوفر على المياه والإمكانيات الطبيعية لقيام زراعة كثيفة، بل تجاوزت حركة استيطانهم ذلك لتشمل المناطق الجنوبية على حواف الصحراء ومشارفها وذلك تبعا لما يحرزه الجيش الروماني من تقدم في الميدان، زيادة على كون حركة الاستيطان شكلت إحدى آليات تكريس الاحتلال الشامل، أي السيطرة على الأرض والإنسان من خلال فرض الأمر الواقع على السكان المحليين. وبزيادة الكثافة البشرية المواكبة لتقدم الجيش نحو الجنوب تزايدت الحاجة إلى المياه والتحكم فيها واستغلالها. واعتمدت السياسة الرومانية في مجال المياه على جانبين هما: التجميع والتوزيع عبر قنوات النقل.

3.تجميع المياه وتخزينها :

لقد اعتمد الرومان على ثلاث آليات لتجميع المياه وتخزينها، حيث تمثلت الآلية الأولى في بناء السدود في مخانق ومضائق طبيعية تمر عليها الوديان المنحدرة نحو الجنوب مخترقة في معظمها جبال الكتلة الأوراسية، ويتم نقل مياه تلك السدود عبر سواقي تساير إحدى ضفتي الوادي ومن ثمة الاتصال بالضيعات والمزارع والواحات القريبة منها، وقد وجدت الكثير من نماذج هذه السدود الموصولة بالسواقي منها آثار سد على وادي القصب (O.Ksob) [2] وفي وادي مازوز (Mazouz)، آثار سد روميلة (Ced Roumila) (3) وفي وادي الأبيض ما تزال ساقية محفورة في الصخر أسفل الوادي والتي أشرنا إليها سابقا.

أما الآلية الثانية التي اعتمدها الرومان في تجميع المياه فتتمثل في الخزانات المقامة على المناطق المشرفة على الحدائق والمزارع، وفي الغالب تكون الخزانات قريبة من المنابع الطبيعية، وقد وجد في تكوت (T'Kout) خزان للمياه دائري

الشكل يبلغ قطره 27 متر وعمقه 1,50 متر يتلقى المياه من منبع قريب منه، ولا يزال هذا الخزان يستعمل إلى غاية الآن [4] وكذلك خزان ثامقرة (Tamagra) قرب خنشلة، الخزان يبلغ طوله 80 مترا وعرضه حوالي 30 مترا، كما توجد عدة نماذج من هذه الخزانات في منطقة متوسة (M'Toussa) قرب باغاي (Bagaï) [5].

زيادة على إنشائهم لخزانات وصهاريج للاستعمال الفلاحي والحضري، فقد استغل الرومان بعض المنخفضات والأحواض الطبيعية لتجميع المياه واستخدامها كخزانات طبيعية مثل أحواض منطقة سبع مقاطع في وادي القنطرة قرب قرية منبع الغزلان وسد برانيس (Branis)، الذي كان يزود منطقة ذراع شيشة التي تدل أثارها على انتشار واسع لزراعة الزيتون، لاسيما في شمالها [6].

أما فيما يتعلق بالآلية الثالثة وهي حفر الآبار، فقد أظهرت التحريات الأثرية كثافة تواجدها وانتشارها في نوميديا الرومانية وعلى مسافات من الأراضي المستغلة، وقد أحصي عدد كبير جدا من هذه الآبار خاصة في رفارف الصحراء، والمثير للاستغراب هو عمق بعضها الذي يتجاوز 50 مترا وعرضها الذي يبلغ الثلاثة أمتار، فكيف تحمل الباحثون عن المياه الجوفية كل هذا العمق، رغم تناقص قيمة البئر كلما كان أعمق يتساءل الأستاذ شنيتي.م.ب؟ [7].

ولنا في هذه الآبار أمثلة عديدة، منها ما لا يزال في حالة جيدة ومستعمل إلى حد الآن، من ذلك نذكر بير ماجور (Bir Madjor) وبير سيدياس (Cedias) في جنوب شرق خنشلة [8].

والملاحظ على انتشار هذه الآبار هو تواجدها بالقرب من ضفاف الوديان، لا سيما في الجنوب النوميدي من ذلك انتشارها على ضفاف وديان العرب، الأبيض، قشطان، خاصة في مراحلها الأخيرة في الجنوب عند بادس (Ad-Badias)، نقرين (Ad-Majors)، تهودة (Thabudeos)، زريبة حامد (Zeribet-El-Hamed)،

زريبة الوادي (Zeribet-El-Oued)، مما يدل على انتشار الزراعات المتنوعة في هذه المناطق الصحراوية المتاخمة لجبال الأوراس [9].

من جهة أخرى نشير إلى كون هذه المناطق كانت على الدوام محل انتجاع واستغلال فلاحي للسكان الأوراسيين حيث يقومون برحلة الشتاء والصيف، إذ بعد حرثهم لأراضيهم الجبلية يرتحلون إلى تلك المناطق الصحراوية في فصل الخريف لحرثها. وبعد الحصاد الذي يتم غالبا في شهر أفريل يعودون إلى أراضيهم الجبلية لمباشرة الحصاد صيفا. ولا نستبعد أن تكون هذه العادة موروثة من العهد القديم.

4. نقل المياه وتوزيعها :

استعمل الرومان في توزيع المياه تقنية محكمة تكونت من شبكة من القنوات يمكن تصنيفها إلى نوعين من القنوات، أما النوع الأول فقد تمثل في قنوات النقل (Aqueducs) وتكون إما مرفوعة على جسور خاصة أو مخترقة جوف الأرض إذا اقتضت حالة سطح الأرض ذلك. وقد أبدع الرومان في إنجاز هذه القنوات المتسمة بالإتقان والمتانة والفعالية، وقد استعملت لتزويد المدن للاستهلاك الحضري، كما استعملت في الأرياف لسقي الحدائق والبساتين. والملاحظ أن مصادرها غالبا ما كانت بعيدة عن مناطق الاستهلاك ذلك ما تتطلب القيام بأعمال بالغة الضخامة والإتقان [10].

وتختلف أحجام تلك القنوات بحسب الغرض الذي أنشأت من أجله أو حجم تدفق المياه من الينابيع التي تشكل مصدرا لها. ففي منطقة الأوراس وجدت قناة لنقل المياه بعين شابور (Ain Chabor) قرب خنشلة بلغ اتساعها 1,20 x 0,70 م، مما يسمح لها بنقل كميات معتبرة من المياه، وذلك ما يوحي بالاستعمال الزراعي لها [11].

ويدل اختلاف أحجام القنوات على مدى غزارة منسوب صرفها وكمية المياه التي تسعها، مما يعطينا فكرة عن كميات المياه التي تم توظيفها إما في سقاية

الأرض أو للاستعمال الحضري، رغم كون القناة لم تكن مملوءة دائما بالضرورة إذ يتحكم في ذلك حالة مصادر مياهها، حيث يمكن أن تقل أو تزيد من فصل لآخر، ويمكن استعراض العلاقة بين قياسات عرض القنوات الناقلة ومنسوب المياه بها كالآتي [12].

عرض القناة	منسوبها في ثا	منسوبها في 24 سا
10 سنتمترات	5 لترات	432 م^3
20 سنتمترا	10 لترات	864 م^3
30 سنتمترا	15 لترا	1296 م^3
40 سنتمترا	20 لترا	1728 م^3
50 سنتمترا	25 لترا	2160 م^3
60 سنتمترا	30 لترا	2592 م^3
70 سنتمترا	35 لترا	3024 م^3
80 سنتمترا	40 لترا	3456 م^3

ولقد كانت قنوات النقل تنطلق من المنابع أو السدود والحواجز المائية باتجاه مناطق التوزيع وغالبا ما كانت قنوات النقل تتفرع إلى قنوات ثانوية. وعند عبورها لسفوح الجبال أو المرتفعات فإنها تسير متوازية بشكل عمودي أو تستجمع في قناة واحدة لتتم إعادة توزيعها فيما بعد. وقد أمكن ملاحظتها عن طريق التصوير الجوي الذي يبين بوضوح وجود علامات بارزة تميزها تتمثل في بعض الأشجار غير المثمرة التي تنمو عند حوض تجميع المياه أو تساير قنوات التوزيع لمسافات متفاوتة. ويصعب التعرف عليها لدى غير المختصين، وعلى العموم فقد بين التصوير الجوي بشكل بارز نماذج عديدة من تلك القنوات خاصة في الجنوب النوميدي [13].

أما فيما يتعلق بالنوع الثاني من القنوات المستعملة لدى الرومان، فيتمثل في قنوات التوزيع والسقي، التي تتواجد بشكل كثيف في منطقة جنوبي الأوراس،

المحاذية لمنخفض الصحراء الشمالية الشرقية الجزائرية، ويشهد على ذلك العدد الكبير من بقايا الآثار المتعلقة بشبكة السقاية الزراعية الرومانية، والسبب يعود إلى خصوبة التربة (الفيضية) التي تجرفها السيول والوديان المنحدرة من سفوح جبال الأوراس [14].

وقد احتوت هذه المنطقة على منشآت ري كثيرة، منها شبكة ضخمة من قنوات التوزيع والسقي منجزة بإتقان وموزعة بدقة مما يوحي بأن إنشاءها تم على يد الهيئات المشرفة على تلك المناطق وفق مخطط صادر عن السلطة المسيرة للبلاد، وأن المهندسين الرومان كان لهم الدور البارز في إنشاء تلك المنشآت، وذلك تحت إشراف الجيش الروماني الذي يعمل على توفير شروط استغلال تلك الأراضي لتدعيم الدور العسكري الذي يلعبه في الميدان تنفيذا لتوجيهات الأباطرة الرومان [15].

ونلاحظ قنوات السقاية في المخانق التي تعبرها الوديان، إذ كثيرا ما كانت تنشأ في تلك المضائق السدود والحواجز المائية التي تنطلق منها قنوات التوزيع، لتنتشر على ضفتي الوادي والتي أظهرتها الصور الجوية التي التقطها الباحث العسكري الفرنسي ج.براديز (J.Baradez) في كثير من المواقع في الجنوب النوميدي [16].

كما تبدو واضحة أيضا في الصور الملتقطة لخزانات المياه الطبيعية والمناطق المجاورة لها، خاصة تلك الواقعة في الشرق والجنوب الشرقي للجزائر، لاسيما وأن تلك الخزانات والحواجز غالبا ما تقام على مخارج الوديان، فتتضح قنوات التوزيع على طول مجاري تلك الوديان [17].

ومن الواضح أن تلك القنوات تؤدي دور توزيع المياه على الحقول والبساتين المجاورة على ضفاف الوديان، وقد أنجزت في شكل خطوط مختلفة الأبعاد وتظهرها الصور الجوية في غاية الدقة والإتقان والكثافة [18].

ويعتقد الباحث ج.بربنت (J.Berbent) أن كثافة شبكة التوزيع تلك كان لها كبير الأثر في تسرب المياه إلى جوف الأرض، ثم تظهر من جديد على

مسافات متفاوتة في شكل ينابيع وآبار أو أحواض صغيرة غالبا ما كانت تستعمل من قبل المزارعين من جديد [19].

وهكذا، يمكن القول بأن شبكة التحكم في المياه التي أقامها الرومان مكنت من استغلال الأراضي الصحراوية وشبه الصحراوية في الجنوب النوميدي. غير أن ذلك يعتبر إحدى عوامل التواجد الروماني واستقراره على حساب السكان الأصليين الذين طردوا من أراضيهم نحو المناطق الجنوبية الغربية[20].

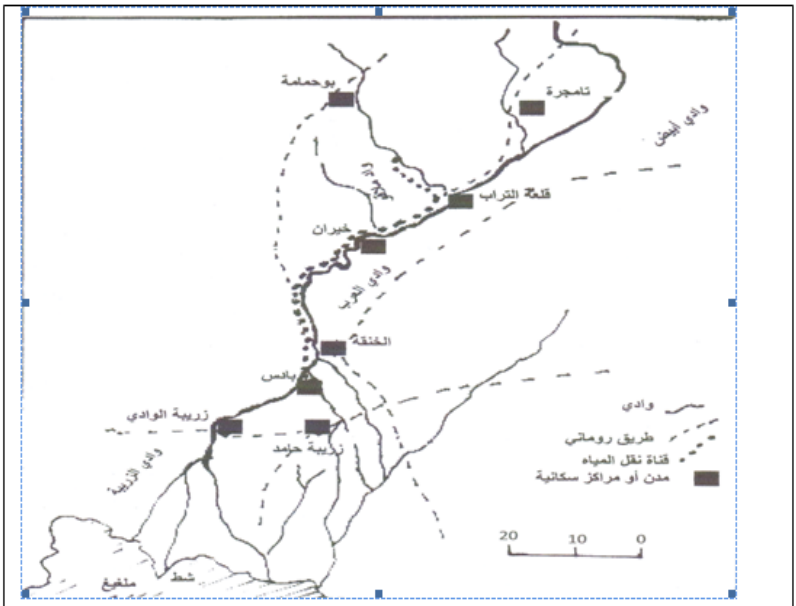

اعتمادا على : - Berbent (J.), op.cit.,p.119.

5.النشاط الزراعي :

من دون شك أن الثروة الفلاحية النوميدية كانت إحدى الأسباب والعوامل المرتبطة بالاحتلال الروماني لشمال إفريقيا، ذلك أن روما دأبت على إشباع حاجاتها من إنتاج المملكة النوميدية الفلاحي في فترات التحالف بين

الدولتين دون عناء. لكن فترات التحالف تلك لم تكن مستقرة ودائمة مما برر ضرورة إلغاء الكيان النوميدي بكامله وذلك ما تم على يد الإمبراطور يوليويوس قيصر (Julius César) سنة 46 ق.م وبذلك يكون الرومان قد بسطوا سيطرتهم على تلك الثروات التي كانت تغويهم منذ القديم، ودمروا من أجلها حضارة بكاملها (قرطاجة) سنة 146 ق.م.

فلا غرو إذن أن يقول قيصر أثناء الاحتفالات بالانتصار الذي حققه في إفريقيا على خصومه البوميين وحليفهم يوبا الأول، واحتلاله للملكة النوميدية **"لقد ضمنت لروما أرضا بإمكانها تزويدنا بكمية تصل إلى 840.000 قنطارا من القمح** [21]".

وعلى هذا الأساس جاء اهتمام الرومان بالمجال الزراعي في المغرب القديم عموما، وقد سجلت لنا البقايا الأثرية المادية التي عثر عليها في منطقة التخوم الصحراوية وفي الأوراس وجنوبه الانتشار الكبير للزراعة الموسمية الواسعة، خاصة زراعة القمح والشعير نظرا لملائمة التربة والمناخ، وكذا اهتمام الأباطرة الرومان بضرورة ضمان تموين دائم لروما وجيوشها. ذلك ما جعل السلطات الرومانية تتدخل لفرض السياسة الزراعية التي تروق لها بحسب احتياجاتها الاقتصادية [22].

وتبعا لذلك كانت الأراضي الإفريقية السهلية التي تضم السواحل التونسية وحوض مجردة والسهول النوميدية العليا التي تمتد من المرتفعات الشمالية إلى سفوح شمال الأوراس، وغيرها من المناطق السهلية في المقاطعات الإفريقية الأخرى التي تعج بالمزارعين والعبيد وآليات الفلاحة من أجل مزيد من الإنتاج [23].

كما حملت المخلفات الأثرية التي عثر عليها في الأوراس ورفارف الصحراء اتساع الخريطة الزراعية الرومانية لتشمل أنواع أخرى من الزراعة خاصة الزيتون التي شكلت بداية توسيع الزراعة الشجرية التي وإن لم تؤثر على المساحات

المخصصة للقمح إلا أنها أضرت بالسكان المحليين وذلك بإجلاء البدو عن المناطق الرعوية بعد استصلاحها خاصة في مناطق السهوب [24].

والملاحظ أن السياسة الزراعية الرومانية ارتكزت على الاهتمام بإنتاج القمح خلال القرن الأول الميلادي. أما خلال القرن الثاني فقد توسعت لتشمل الأشجار المثمرة والتي يتصدرها الزيتون [25].

نظرا لتزايد الطلب على مادة الزيتون في مناطق عديدة من الإمبراطورية الرومانية، ذلك أن إنتاج الزيت كان موجها لاستعمالات عدة منها صناعة الصابون والعطور واستعماله كزيت للإنارة [26].

وقد ساهمت العوامل الطبيعية في انتشار زراعة الزيتون في شمال إفريقيا عموما، ذلك أن أشجار الزيتون لا تحتاج إلى درجة عالية من خصوبة التربة كما أنها لا تقوى على تحمل درجة حرارة أقل من 05° مئوية شتاءً، في حين تتحمل درجة حرارة عالية، بل يكون مردود ثمارها من الزيت أكبر في المناطق الحارة [27].

ذلك على ما يبدو ما جعل الرومان يحرصون على تعميم هذه الزراعة الشجرية في المناطق الداخلية والجنوبية من المملكة النوميدية، لاسيما الأوراس وسفوحه الجنوبية المتاخمة للصحراء. وإن كان المغاربة القدامى عرفوا هذه الزراعة قبل التواجد الروماني بزمن طويل وأتقنوا عمليات التلقيم والمعالجة والاستخدام المتعدد الأوجه [28].

لكن التطور الحقيقي لهذه الزراعة عرفته الفترة الرومانية، ذلك أن السياسة الاستعمارية للأباطرة الرومان اتخذت من توسيع زراعة الزيتون أداة لرومنة الأرض والإنسان بفرض حياة الاستقرار على قبائل البدو التي كانت ترتحل من وإلى أطراف الصحراء الشمالية وجنوب الأوراس، مما أدى إلى ارتفاع الكثافة السكانية والعمرانية بتلك المناطق بعد توافد المزارعين عليها، زيادة على إقبال الأهالي لطلب العمل في مؤسسات صناعة الزيت الناشئة طلبا للعمل كأجراء في حقول الزيتون ومعاصره [29].

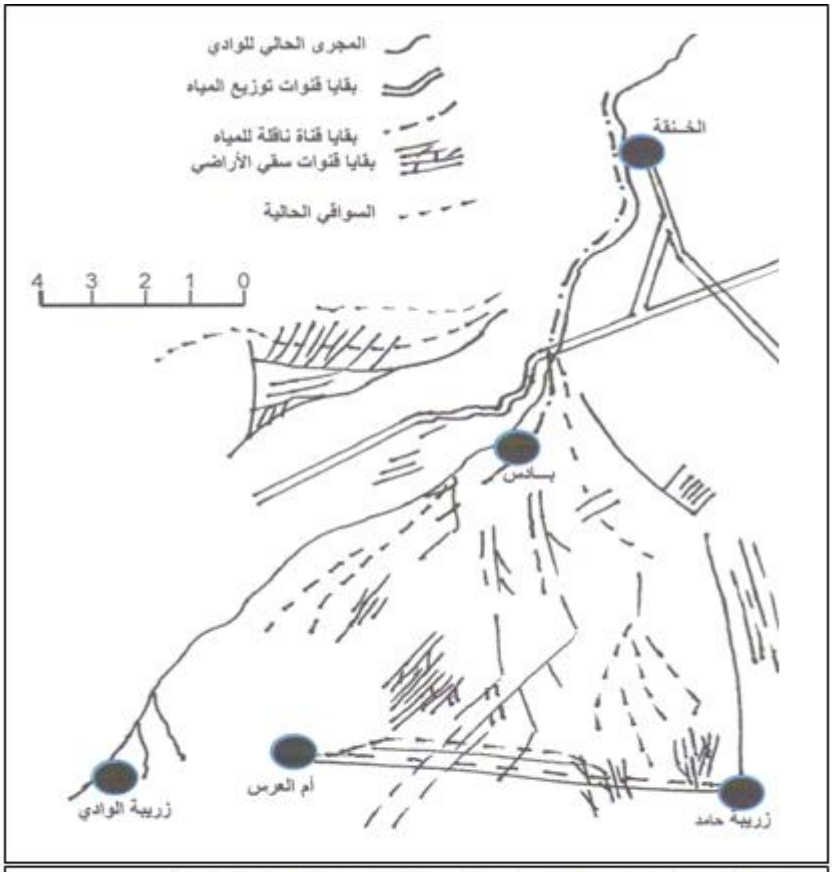

شكل رقم: 02 نموذج من أعمال الزراعة والسقي بمنطقة باغاي خلال القرن الثالث الميلادي.

اعتمادا على: -Berbent (J.), op.cit., p.188.

وتظهر المخلفات الأثرية النجاح الكبير الذي أحرزه الرومان في توسيع نفوذهم ودفع حدود الليمس إلى المناطق الجنوبية بملامستها في عهد الأباطرة السيفيريين أطراف الصحراء الشمالية الشرقية في جنوب نوميديا ومناطق السهوب في جنوب موريطانيا القيصرية [30].

وذلك ما يؤكده الانتشار الكثيف لبقايا آثار معاصر الزيتون، ففي المناطق النوميدية يمكن أن نشير إلى تواجدها في ثاورة (Thaoura) ومداوروش (Madaure) [31].وفي منطقة النمامشة تحديدا في تبسة ومحيطها [32].وفي أعماق الأوراس خاصة ضفاف الوديان منها ما عثر عليه في وادي قشطان (Guechtane) [33].وفي وادي العرب (O.El Arab) [34] كما تتواجد آثار لمعاصر الزيتون في المناطق المجاورة لوديان: القنطرة وعبدي ثم الأبيض [35].

وهكذا تدريجيا أصبحت الأراضي النوميدية تحت السلطة الرومانية التي وظفت كل الآليات العسكرية والاقتصادية لفرض الهيمنة وبسط النفوذ إلى أبعد نقطة ممكنة على حساب السكان الأصليين للبلاد الذي أرغم من أبى أن يترومن منهم على النزوح إلى خارج نطاق الليمس، وفرضت على من تبقى داخل الحدود التخلي عن هويته وطبيعة حياته أيضا بإدماجه في نمط الحياة الرومانية، ذلك أنه ينبغي عليه أن يعمل في الزراعة أو الحراسة أو في معاصر الزيت.

وينبغي التذكير، بأن الرومان كانوا قد دعموا سياسة الرومنة التي مارسوها على الأرض والإنسان بمحاولة تكريسها كأمر واقع على السكان، فبالإضافة إلى الإجراءات السابقة عمل الرومان على إخضاع السكان لنظام ضريبي مجحف، فأنشأوا لهذا الغرض مراكز خاصة ثابتة ومتنقلة لجمع الضرائب المفروضة لتزويد مواقع الحراسة الرومانية بالمواد الغذائية، وضمان تموين كتائب الجيش، لاسيما المساعدة منها (Les auxiliaires) التي كانت تنتشر في مناطق الليمس [36].

ولا يمكن فصل فرض الضرائب في فترة الاحتلال الروماني عن الوضع المترتب عن انتصار روما في المغرب القديم واعتبار الأرض والسكان ضمن الغنائم التي تصبح ملكا للشعب الروماني المنتصر. ومن ثمة أصبحت الأرض النوميدية بمن عليها ملكا عموميا للشعب الروماني. وسكانها مهزومين، عليهم دفع الضريبة، استبقاءً لحياتهم وحريتهم. وقد أوكلت مهمة جمع الجبايات إلى حاكم

الولاية الإفريقية في بداية إنشائها، ثم ما لبثت أن أوكلت إلى السلطات المحلية في المدن (ممثلي الخزينة العمومية ومجالس البلديات [37].

وكانت مراكز محصلي الضرائب عبارة عن مستودعات تجمع فيها الحبوب والزيوت. ولقد أمكن التصوير الجوي من ملاحظة إحدى هذه المستودعات في منطقة تهودة. والمرجح أنه يعود إلى القرن الثاني أو الثالث الميلادي بالنظر إلى طريقة بنائه، كما وجد مستودع ثان في قرية الملاقة (حاليا) يعود إلى فترة حكم الإمبراطور تراجان، أي بداية القرن الثاني الميلادي [38].

يستخلص من السياسة الزراعية الرومانية المنتهجة عموما في بلاد المغرب القديم ارتباطها بالسياسة الإمبراطورية القائمة على رسم أهداف بعيدة من شأنها إطالة الوجود الروماني. وفي ذلك السياق يندرج تقسيم الأراضي الزراعية النوميدية المنتزعة من القبائل وتوزيعها على العائلات الأرستقراطية التي تنتمي إلى مجلس الشيوخ تحت نظام الحيازة، والجنود المسرحين من الجيش، إضافة إلى ما أخذ من الأراضي باسم الإمبراطور وعائلته [39].

ولم تكن القبائل المرتحلة أحسن حالا من القبائل المزارعة. إذ أن تنقلات تلك القبائل الممارسة للرعي كانت تضايق المؤسسات العسكرية والاقتصادية الرومانية داخل حدود الليمس. ذلك ما دفع بها تدريجيا إلى مغادرة أراضيها والنزوح نحو الجنوب أو الاندماج في الحياة الرومانية كيد عاملة زهيدة لدى المستوطنين الرومان. ومن ثمة تكاملت فصول السياسة الرومانية ذات الأبعاد الاستعمارية بالعمل على رومنة الأرض والسكان وتحويل الوجه العام للبلاد تماشيا مع الإستراتيجية المرسومة منذ سقوط قرطاجه 146 ق.م. وتجسدت هذه السياسة في تدرج مؤسسة الليمس نحو الجنوب وتكامل أجزائها ومحتوياتها لرومنة أكبر قدر ممكن من الأراضي والسكان المحليين.

. نتائج التوسع الروماني نحو الجنوب:

كان من بين أسباب ثورة الزعيم الموزيلامي تاكفاريناس (17-24 للميلاد) المطالبة باستعادة الأراضي النوميدية التي استولى عليها الجيش الروماني في إطار تسابق الرومان على احتلال أكبر قدر ممكن من الأراضي الفلاحية، وهو ما دفع على ما يبدو ثاني إمبراطور (تيبيريوس) إلى توسيع الحدود الرومانية نحو الجنوب والاستيلاء على أراضي القبائل النوميدية النازلة في الأوراس وشرقه.

وإن كان المزالمة وغيرهم من سكان المغرب القديم قد جابهوا سياسة الأباطرة الرومان في فجر الإمبراطورية بمقاومة عنيفة وصمود باسل، فإن الرومان قد عملوا على الاحتفاظ بالأرض وتكريس الاحتلال، وذلك من خلال عمليات المسح والكنترة التي مارسها ماسحو الأرض(Agrimensores) [40].إذ كانوا يقومون بمهمتهم بالسير في أعقاب جيش الاحتلال بعد انتهائه من عملية اغتصاب الأرض من أصحابها بقوة السلاح، وكان المستفيدون الأوائل من تلك الأراضي التي قُنِّنَ احتلالها بتجزئتها إلى قطع متساوية على الجنود المتقاعدين بعد منحهم أراضي التخوم ذات الموقع الاستراتيجي [41].

ولم يتوان الأباطرة الذين أعقبوا تيبيريوس في استكمال سياسته وتشجيع الاستيطان بإنشاء المستوطنات في شمال وجنوب نوميديا، خاصة الإمبراطور تراجان الذي عمل على حشد الأهالي وترحيلهم، ففي هذا السياق انتزع أراضي المزالمة، مما اضطرهم إلى النزول في أراضي فقيرة، في حين استفاد من أراضيهم المستوطنون الإيطاليون أو قدماء الجيش الروماني. كما شتت قبيلة نوميديا بين شمال الأوراس وشرقه، وذلك ما ترتب عنه تحول جانب كبير من الأهالي إلى الاشتغال كفلاحين أجراء لدى المستوطنين الرومان [42].

وقد واكب إنشاء المستوطنات توسيع المساحات المزروعة في الأرض النوميدية نحو الداخل باتجاه الجنوب، فاستصلحت الأراضي من أجل التشجير مع

الاستمرار في زراعة الحبوب، وذلك ما ترتب عنه إجلاء البدو عن أراضيهم وزحزحتهم نحو الصحراء [43].

كما استهدف الرومان من جانب آخر تشتيت السكان المحليين وعزلهم عن بعضهم البعض لمنع الاتصال والتقارب المحتمل، والذي قد يعيق إنشاء مستوطنات جديدة أو يضايق التواجد العسكري الروماني المكلف بحماية الأراضي المرومنة داخل الليمس [44].

ورغم سعي الرومان من وراء ذلك إلى تفكيك البنية الاجتماعية للسكان المحليين وإبعادهم عن أراضيهم التي تجذَّروا فيها وتوارثوها أبا عن جد، فأصبحوا يرتحلون من الجبال والسهوب والصحراء بحثا عن الكلأ والماء، إلا أنه حسب اعتقاد (J.Despois) لم يتمكن الرومان من تحقيق أهدافهم من خلال سياستهم تلك، فتوغُل حدود الليمس أكثر في الجنوب ومضايقتها للقبائل المحلية، جعل دور هذه الأخيرة يتعاظم في اختراق الحدود الرومانية والسطو على مزارع المستوطنين والإغارة على أبراج المراقبة ومراكز الحراسة أثناء تنقلاتها الموسمية [45].

ذلك ما ولد لدى الرومان مخاوف على مصالحهم الاستراتيجية، فعملوا على مضايقة السكان باستهداف التحكم في الطرق والمعابر المؤدية من التل إلى الصحراء، لاسيما مخارج الوديان المخترقة للأوراس ومخانقها، وذلك ما تبينه التحصينات وآثار الطرق المقامة في هذه المواقع [46].

هذا زيادة على اتصاف الاحتلال الروماني بطابعه الاستيطاني، الذي عمل على إيجاد الظروف الملائمة لإحداث تغيير جوهري في الخريطة الديموغرافية للمغرب القديم عموما ونوميديا بشكل خاص، إذ توافدت عليها عناصر بشرية جديدة استوطنت مناطق الثقل الاقتصادي، أدت إلى تراجع السكان الأصليين نحو الجنوب، لاسيما بعد اشتداد الأزمة الاقتصادية والاجتماعية بإيطاليا في بداية الحكم الإمبراطوري[47].وتبلور رغبة الأباطرة في الاستيلاء على أراضي الشعوب المهزومة واستغلال ثرواتها [48].

وتبعا لذلك توافد على التراب النوميدي عناصر أجنبية مختلفة الأعراق، منهم الأسبان، الغاليون، الإغريق والسوريون [49].وقد سجلت لنا الوثائق التاريخية اهتمام العناصر الشرقية والسورية بشكل خاص بمجالي التجارة والجيش، خاصة في الجنوب النوميدي باعتبارهم يحسنون القتال في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية، وذلك منذ فترة حكم الإمبراطور أنطونينوس التَّقي (138-161م)، ولنا في الآثار والنقوش المتواجدة في القنطرة (Calceus Herculis) أحسن مثال على ذلك [50].والتي بينت التواجد الكثيف لهؤلاء السوريين الذين عملوا على إخضاع الأهالي أو طردهم خارج حدود الليمس جنوب [51].

ورغم ذلك فقد بقي بعض السكان متمسكين بأرضهم ممارسين لحرفتهم، كامتهان حرفة الرعي أو ممارسة الزراعة وتربية النحل في بعض الأرياف النوميدية، ونلاحظ اهتمام الرومان ببعض المنتوجات كعسل النحل على سبيل المثال أو الحبوب والزيتون، توجيها للاقتصاد النوميدي نحو خدمة روما وسكانها [52].

فضلا عن ردود الفعل القاسية التي كان ينتهجها الرومان على الثورات المحلية بإرهاق السكان بالاستعباد وفرض الضرائب الباهضة، كضريبة الرأس وضريبة الحياة، زيادة على الضرائب المرتبطة باالجانبين العسكري والجمركي [53].

ولم يكتف الرومان بذلك، بل عملوا على رومنة الإنسان من خلال نشر الثقافة اللاتينية خاصة في العهد السيفيري، حيث تجلى ذلك في تخطيط المدن وتشييد المعابد والكنائس والمسارح وفرض اللغة والكتابة اللاتينية بعد القضاء التدريجي على الكتابتين الليبية والبونية اللتين عرفتهما نوميديا قبل الاحتلال الروماني [54].

خاتمـة:

من خلال ما سبق يمكـن أن نخلـص إلى مجموعـة مـن النتـائج الـتي تـبرز الأهمية الإستراتيجية لمنطقة شمال الصحراء أثناء فترة الاحتلال الروماني للشمال الإفريقي منها:

- لم يكتف الأباطرة الفلافيين بتحصـين شمـال الأوراس فقـط بـل دعمـوا الخط الدفاعي الشمالي بخط ثان وذلـك خـلال القـرنين الثـاني والثالـث الميلاديين بحيث امتد شمال الصحراء على المنطقة المتاخمة للأوراس بهدف التصدي للغارات التي كان السكان المحليين الصحراويين يشنونها من حين لآخر على مراكز الاحتلال الروماني في الأوراس.
- برز الجانب الاقتصادي لمناطق الليمس في الشمال الصـحراوي في كونهـا شكلت حواجز بين المناطق المنتجة وغير المنتجة، ذلك أنه بالنسـبة لرومـا كل ما هو خارج الليمس غير مفيد ومن ثمة ركـز الرومـان جهـودهم في مناطق الليمس الجنوبية على تشييد أعمال جبارة في الزراعـة واستصـلاح الأراضي وشق القنوات لنقل المياه وتخزينها ثم توزيعها لزيادة الإنتاج من أجـل تزويـد رومـا، ذلـك مـا عمـد إليـه الأبـاطرة الرومـان منـذ عهـد أوكتافيوس.

❖ هوامش البحث:

(1) الليمس: ارتبط مفهوم الليمس إلى غاية منتصف القرن 20 للخطوط الدفاعية المحصنة التي كان الرومان يقيمونها على حدود المناطق الخاضعة لنفوذهم المباشر. وتكون تلك الخطوط بمثابة الحد الفاصل بين الرومان والبرابرة (Les barbares) الخارجة عن نطاق الحضارة الرومانية، وكان الرومان قد شرعوا في إنجاز الليمس في مختلف مناطق الإمبراطورية الرومانية منذ فترة حكم الإمبراطور أغسطس، عندما أمر هذا الأخير بحشد بعض الفرق العسكرية لاسيما الفرق المساعدة في حدود الإمبراطورية بمختلف المقاطعات الخاضعة لسلطة روما. فأقيمت لها معسكرات محصنة ببعضها البعض بواسطة طرق عسكرية أنشأت لهدف المراقبة المستمرة على طول الخط الدفاعي. انظر :

- Harmand (L.), L'occident romain, Guaule, Espagne, Bretagne, Afrique du nord (31 av.J.C à 235 ap.J.C), éd. Payot, Paris, 1970, p.219 ; Frédouille (J.C.), Dictionnaire de la civilisation romaine, édit.2, Larousse, Paris, France, 1999,p.92.

(2) Gsell (S.), Atlas Archéologique de l'Algérie,Tome.I, (Texte),éd. 2, Alger,1997, F.25, N°.82, 83.

(3) Gsell (S.), A.A.A., F.37, N°.7.

(4) Gsell (S.), A.A.A., F.37, N°.20.

(5) Berbent (J.) , Aquae Romanae, recherche d'hydraulique romaine dans l'est algérien service des antiquités de l'Algérie, Alger, 1962., p . 302 ; Gsell (S.), A.A.A., F.38, N°.58.

(6) Berbent (J.), op.cit., p . 146.

(7) غانم محمد الصغير، مقالات حول تراث بسكرة والتخوم الصحراوية، مطبعة عمار قرفي، باتنة، بدون تاريخ. ص.ص. 70- 71.

(8) شنيتي محمد البشير، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص . 108- 109.

(9) Berbent (J.), op.cit., pp. 131-133.

(10) نشير هنا إلى العوامل الاقتصادية التي تحكمت في تقدم خطوط الليمس، و هي البحث عن مصادر المياه و التحكم بها لاستغلال الأراضي الصالحة للزراعة، و التقدم بمناطق السيطرة الرومانية نحو الغرب، للوصول إلى منطقة تقاطع جبال الأوراس مع مرتفعات الزيبان هذين الحاجزين الطبيعيين الذين استند عليهما الليمس النوميدي المتقدم جنوب الأوراس، والذي كان قد شرع في إنجازه الإمبراطور تراجان و دعم تقدمه غورديان III (Gordien III) في الزيبان من خلال التحصينات التي أمر بإنشائها في الدوسن و سدوري (Auzum) ... لمزيد من المعلومات أنظر:

- Guey (J. Note sur le limes Romain de Numidie et le Sahara au IV^{e} siècle, M.A.H., N°.1, vol.56, 1939, pp .178 – 248.□

(11) شنيتي محمد البشير، المرجع السابق، ص . 111.

(12) Berbent (J.), op.cit., p .226.

(13) شنيتي محمد البشير، المرجع السابق، ص . 112.

(14) غانم محمد الصغير، المرجع السابق، ص ص . 73- 74.

(15) شنيتي محمد البشير، المرجع السابق، ص . 115.

(16) Berbent (J.) , op.cit., p. 122.

(17) Baradez (J.),Fossatum Africae (recherche aérienne sur l'organisation des confins sahariens à l'époque romaine),Paris, 1949.p.325.

(18) Berbent (J.) , op.cit., p . 119 ; Baradez (J.), op.cit., p. 424.

(19) Baradez (J.), op.cit., p . 425.

(20) Berbent (J.) , op.cit., pp . 182-184.

(21) Picard (G.Ch.), La civilisation romaine, Paris, 1959, p. 70.

(22) Harmand (L.) , op.cit., p . 369.

(23) شنيتي محمد البشير، المرجع السابق، ص ص . 89- 90.

(24) Picard (G.Ch.), La civilisation romaine Paris, 1959., p. 71.

(25) شنيتي محمد البشير، مرجع سبق ذكره، ص . 90.

(26) Harmand (L.), op.cit., p . 370.

(27) Camps (H.F.), L'olivier et l'huile dans l'Afrique romaine, imprimerie officielle, Alger, 1953, p. 14.

(28) Jouleaud (L.),L'ancienneté de la fabrication de l'huile d'olive dans l'Afrique du nord, R.Afr., N° 70, 1929, pp . 19-36.

(29) شنيتي محمد البشير، المرجع السابق، ص . 97.

(30) Picard (G.Ch.), Castellum Dimmidi, Alger-Paris,1947, pp .65- 66.

(31) Gsell (S.), A.A.A., F.19, N°.1, 19, 70, 84, 94.

(32) Gsell (S.), A.A.A., F.29, N°.70, 104, 146.

(33) Morizot (P.),Les ruines romaines de l'oued Guechtane,R.Afr.,N° 89, 1948,pp .120-142.

(34) Alquier (J.), Les ruines antiques de oued El Arab, R.Afr., N°.82, 1941, pp . 31-39.

(35) Camps (H.F.) , op.cit., p . 29.

(36) غانم محمد الصغير، المرجع السابق، ص . 78.

(37) شنيتي محمد البشير، المرجع السابق، ص ص . 127-128.

(38) Baradez (J.) , op.cit., p . 276.

(39) شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983.ص ص . 217- 218.

(40) Salama (P.), Les voies romaines de l'Afrique du nord, Imprimerie officielle du gouvernement général de l'Algérie, Alger, 1951., p .35.

(41) شنيتي محمد البشير، المرجع السابق، ص . 52.

(42) شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص ص . 217- 218.

(43) Picard (G.Ch.), Castillum dimmidi…, p . 71.

(44) Despois (J.) La bordure saharienne de l'Algérie orientale, R.Afr.,1942-43,pp. 197-219.

(45) Ibid.

(46) Salama (P.) , op.cit., p . 38.

(47) بدأ نظام الحكم الإمبراطوري في روما عندما انتصر أوكتافيوس على مارك أنطونينوس أثناء الحرب الأهلية وذلك في معركة أكتيون البحرية في اليونان، فأصبح الحاكم الأول في روما ومنحه مجلس الشيوخ الروماني لقب أوغسطس أي العظيم ، وذلك يكو أكتافيوس أول إمبراطوري روماني ... لمزيد من المعلومات أنظر:

- سيف الدين الكاتب، أطلس التاريخ القديم، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، 2005، ص. 103.

(48) Lassère (J.M.),Ubique populus, peuplement et mouvement de populations dans l'Afrique (□) romaine, de la chute de Carthage à la fin de la dynastie

des sévères (146 Av.J.C-235Ap.J.C), Paris, édition C.N.R.S., 1977, p . 294.

(49) يبدو أن توافد الأقليات والعناصر الأجنبية على التراب النوميدي كان مدروسا ومنظما من قبل الإدارة الرومانية وذلك من خلال الأدوار التي أسندت إلى تلك الأقليات والعناصر، فغالبا ما كان الإغريق والغاليون يحتكرون التجارة في حين جلب السوريون في إطار تدعيم الجيش الروماني في حروبه بالجنوب النوميدي وذلك من خلال الفرق المساعدة في الجيش الروماني التي استقدمت من سوريا نظرا لتشابه الطبيعة الجغرافية بين سوريا ونوميديا ... لمزيد من المعلومات أنظر:

Albertini (E.), Inscriptions d'El Kantara et de la région, R.Afr., N.72, 1931, pp.193-261; Picard (G.Ch.), Castellum…, pp.85-120.

Cagnat (R.), L'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous .

(50) les empereurs, imprimerie nationale, Paris, 1892. , p .206 ; Gsell (S.), A.A.A., F.37, N°.52 ; Carcopino (J.), Note complémentaire sur les Numiri syriens de la Numidie romaine, (Syria), 1934, pp . 20-31.

(51) Leschi (L.), Inscriptions d'El Kantara et de la région, R.Afr.,N°.72, 1931, pp . 193-293 ; (5) Albertini (E.), L'Afrique romaine, imprimerie officielle, Alger, 1956, p. 26.

(52) Lacroix (M.F.), Procédés agricoles, R.Afr., N°.14, 1870, pp . 97-120.

(53) غانم محمد الصغير، **مقالات وآراء في تاريخ الجزائر القديم**، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.ص . 208.

(54) المرجع السابق.